المحور الأول

مفهوم البيئة

تعد كلمة "البيئة" من الكلمات التي راجت حديثا وكثر استخدامها في النصف الثاني من القرن العشرين، لكن تحديد مفهومها ليس سهلا، وهذا لارتباط كل مفهوم بمجال استخدامه، وقد يتعدد هذا المفهوم تماشيا مع رؤية الباحث في كل فرع من فروع العلوم المختلفة.

وحتى نتمكن من فهم القواعد القانونية التي تهتم بحماية البيئة أو ما يسمى بقانون البيئة، لا بد من التطرق لمفهوم البيئة، وقد ارتأينا تقسيم هذا المحور إلى قسمين، حيث خصصنا القسم الأول لتعريف البيئة، أما القسم الثاني فخصصناه لمفهوم النظام البيئي والتوازن البيئي.

أولا: تعريف البيئة

نتطرق إلى تعريف البيئة لغة واصطلاحا وقانونا ثم نتطرق إلى بعض المفاهيم ذات الصلة بمفهوم البيئة.

أ- التعريف اللغوي للبيئة: يعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة في اللغة العربية إلى المصدر " بوَّأَ "، والفعل الماضي له " بَاءَ "، أما الفعل المضارع له " يَبُوءُ ". وتأتي بمعنى نزل وأقام. نقول: بَوَّأَ فلاناً منزلا، وفيه: أَنزله أو أسكنه فيه.

ووردت كلمة " بوَّأَ " في القرآن الكريم والسنة النبوية في عدة مواضع نذكر قوله تعالى: ((وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفا))' أي لننزلنهم من الجنة علالي، وفي الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم (من كذب عليلا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) أي لينزل منزله من النار.

وقد جاء في لسان العرب لابن منظور أن كلمة " بوَّأَ " تعني باءَ إِلى الشيء يَبُوءُ بَوْءاً أي: رَجَعَ. وذكر المعجم نفسه معنيين قريبين من بعضهما البعض لكلمة " تَبَوَّأَ ": المعنى الأول: إصلاح المكان وتهيئته للمبيت، أما المعنى الثاني: النزول والإقامة.

تعد كلمة البيئة (Environnement) لفظ جديد في اللغة الفرنسية، والتي تعبر عن المكان الذي يعيش فيه الكائن الحي وعن الظروف التي تكتنف ذلك المكان، قد تم إدراجها ضمن قاموس "Larousse" سنة 1972، وعرفها كما يلي: مجموعة من العناصر الطبيعية أو الاصطناعية التي تشكل إطار حياة الفرد.

أما في معاجم اللغة الانجليزية، فقد عرف قاموس "Longman" البيئة (Environment) كما يلي: المميزات الطبيعية للمكان، على سبيل المثال الطقس، ونوع الأرض الموجودة فيه، ونوع النباتات التي تنمو فيه.

بعد استقرائنا لمختلف المعاجم اللغوية وجدنا أن المعنى اللغوي لكلمة البيئة يكاد يكون واحدا بين مختلف اللغات. فهو ينصرف إلى المكان أو المنزل أو الوسط الذي يعيش فيه الكائن الحي بوجه عام، كما ينصرف إلى الحال أو الظروف التي تكتنف ذلك المكان، أيا كانت طبيعتها " ظروف طبيعية أو اجتماعية أو بيولوجية".

ب- التعريف الاصطلاحي للبيئة

تعرف كذلك البيئة اصطلاحا كما يلي: المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة وكائنات حية، منشآت أقامها لإشباع حاجاته.

ويمكن إبراز أهم تعريف اصطلاحي للبيئة كما يلي:

يقصد بالبيئة كل من:

1- البيئة الطبيعية وقوامها الماء والهواء والفضاء والتربة وما عليها أو بها من كائنات حية.

2- البيئة الوضعية بما وضعه الإنسان في البيئة الطبيعية من مرافق ومنشآت لإشباع حاجاته.

ج- التعريف القانوني للبيئة

أصبحت البيئة قيمة جديدة ضمن قيم المجتمع التي يسعى للحفاظ عليها وحمايتها من التلوث بكل أنواعه، لذا لقيت اهتماما كبيرا من طرف المجتمع الدولي وخصوصا بعد انعقاد مؤتمر ستوكهولم للبيئة البشرية لسنة 1972، واتجهت معظم الدول إلى تأكيد هذه القيمة الجديدة في قوانينها بل وفي بعض الدساتير وجعلتها حقا من حقوق الإنسان.

سنبرز بعض التعريفات للبيئة التي جاءت في بعض القوانين الوطنية، ونذكر على سبيل المثال.

عرفها المشرع المصري بموجب المادة 1 من قانون البيئة المصري رقم 4 لعام 1994 بأنها: المحيط الحيوي الذي يشمل الكائنات الحية، وما يحويه من مواد وما يحيط بها من هواء وماء وتربة، وما يقيمه الإنسان من منشآت.

أما المشرع الجزائري عرفها بموجب المادة 4 من القانون رقم 03-10 المؤرخ في 19 جويلية سنة 2003 المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة كما يلي: تتكون البيئة من الموارد الطبيعية اللاحيوية والحيوية كالهواء والجو والماء والأرض وباطن الأرض والنبات والحيوان، بما في ذلك التراث الوراثي، وأشكال التفاعل بين هذه الموارد، وكذا الأماكن والمناظر والمعالم الطبيعية.

د- مفاهيم ذات صلة بمفهوم البيئة

توجد بعض المفاهيم ذات الصلة بمفهوم البيئة، وتم التطرق إليها نظرا لاعتماد قانون البيئة بشكل كبير على المعلومات العلمية والتقنية، وفي كثير من الأحيان تكون معرفة ومحددة من طرف علماء البيئة، لذا لا بد من إبرازها فقد يستخدمها المشرع ضمن النصوص القانونية، وبذلك نرفع اللبس عن غموض هذه النصوص. ونذكرها على سبيل المثال: علم البيئة والطبيعة.

-علم البيئة (Ecologie):

عرف علم البيئة عدة تعريفات نذكر على سبيل المثال:

علم البيئة هو العلم الذي يهتم بدراسة الكائن الحي بالنسبة إلى جميع العوامل المحيطة به الحية وغير الحية.

أضاف قاموس "Larousse" الإنسان ككائن حي له علاقة بالكائنات الحية، وقدم تعريفا أكثر وضوحا جاء كما يلي: يركز علم البيئة على علاقات الكائنات الحية (الحيوانات والنباتات والكائنات الحية الدقيقة) مع بيئتهم، وكذلك مع الكائنات الحية الأخرى. فإذا قارنا تعريف البيئة مع تعريف علم البيئة نجد أن البيئة تأخذ في الاعتبار الإنسان في بيئته الاصطناعية أو الطبيعية، بينما علم البيئة يهتم فقط بالنباتات والحيوانات.

2- الطبيعة (Nature):

يعد مفهوم الطبيعة مفهوما غامضا، فهي تشمل كل ما خلقه المولى عز وجل، أي التربة والمعادن وكذلك الأنواع الحيوانية والنباتية. فالطبيعة تجمع بين المواقع والمناظر الطبيعية والنظم البيئية. وكل شيء لم يتدخل الإنسان في بنائه أو تغييره بشكل مباشر فهو من الطبيعة.

وتعبير البيئة ليس مرادفا لتعبير الطبيعة، فهما تعبيران مختلفان، فالطبيعة من صنع الخالق سبحانه وتعالى وهي تشمل كل مظاهر الوجود المادي المحيط بالإنسان والذي لا دخل

لإرادة الإنسان فيه، والتي تسير على سنن فطرية بقدرة المولى عز وجل. أما البيئة، تتميز بالعنصر الاصطناعي أو الحضري الذي يتحكم فيه الإنسان ويكون تحت إدارته.

ثانيا: النظام البيئي والتوازن البيئي

سنقوم بتعريف النظام البيئي ثم نتطرق إلى مفهوم التوازن البيئي وأسباب اختلال التوازن البيئي.

أ-النظام البيئي (Ecosystème): نعرف النظام البيئي ثم نبين عناصره.

1- تعريف النظام البيئي

عرفته اتفاقية التنوع البيولوجي لسنة 1992 بموجب المادة 2 كما يلي : النظام البيئي (الايكولوجي) يعني مجمعاً حيوياً لمجموعات الكائنات العضوية الدقيقة النباتية والحيوانية يتفاعل مع بيئتها غير الحية باعتبار أنها تمثل وحدة ايكولوجية.

أما المشرع الجزائري فقد تناول هذا المفهوم ضمن المادة 4 من القانون رقم 03 - 10 المؤرخ في 19 جويلية 2003، المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة. ونذكر بعض الأمثلة على النظم البيئية كالنظم البيئية الأرضية أو القارية والنظم البيئية للغابات والنظم البيئية الزراعية والنظم البيئية للمحيطات والنظام البيئي للبحيرات[1].

ويمكن كذلك تعريف النظام البيئي كما يلي: هو التفاعل بين العوامل الحية الموجودة في البيئة والعوامل غير الحية التي تحيط بها في منطقتها البيئية. ويعرف النظام البيئي أيضا بأنه وحدة تنظيمية في حيز معين، تضم عناصر حية وعناصر غير حية تتفاعل معا وتؤدي إلى تبادل المواد بين العناصر الحية والعناصر غير الحية. ويمثل الموطن البيئي "Habitat" وحدة

---

[1] تزخر الجزائر بعدة أنظمة بيئية، نذكر على سبيل المثال: النظام البيئي البحري، النظام البيئي الصحراوي، النظام البيئي الساحلي، النظام البيئي للمناطق الرطبة، النظام البيئي للغابات، النظام البيئي للجبال، النظام البيئي للسهوب.

النظام البيئي، حيث يمثل السكن أو الملجأ للكائنات الحية ليشمل جميع معالم البيئة الطبيعية والكيميائية والحيوية.

2- عناصر النظام البيئي:

يتكون النظام البيئي من مكونات حية ومكونات غير حية تكون معا نظاما ديناميكيا متزنا.

ويمكن تقسيم النظام البيئي إلى مجموعتين من العناصر: مجموعة العناصر غير الحية (العوامل غير الحيوية Facteurs abiotiques) ومجموعة العناصر الحية (العوامل الحيوية Facteurs biotiques)

2-1- مجموعة العناصر غير الحية: وتشمل الماء والهواء بغازاته المختلفة والتربة والمعادن والشمس بإشعاعاتها المختلفة وبعض المخلفات النباتية والحيوانية المتحللة. ويمكن تقسيم العناصر غير المتحللة حسب طبيعتها إلى مواد عضوية ومواد عنصرية وعناصر طبيعية وعناصر فيزيائية.

2-2- مجموعة العناصر الحية: وتشمل جميع الكائنات الموجودة ضمن النظام البيئي، كالإنسان والحيوان والنبات والكائنات الحية الدقيقة، وتنقسم هذه المجموعة من العناصر حسب وظيفتها إلى عناصر حية منتجة (تستطيع تجهيز غذائها بنفسها باستغلال عناصر المجموعة الأولى كالنباتات الخضراء والطحالب بأنواعها وبعض أنواع البكتيريا الممثلة للضوء) وعناصر حية مستهلكة (لا تستطيع تجهيز غذائها بنفسها وتعتمد في غذائها عل ما تنتجه المجموعة الأولى من خلال سلسلة غذائية قصيرة أو طويلة المدى كالكائنات العاشبة والكائنات اللاحمة والكائنات العاشبة اللاحمة) وعناصر حية محللة أو هادمة (كالكائنات الحية الدقيقة وبعض الكائنات الأخرى غير الدقيقة).

ب- التوازن البيئي (Equilibre écologique):

من الضروري لاستمرار الحياة أن يكون هناك توازن للأنظمة البيئية الموجودة في الوسط الحيوي، بمعنى أن يكون هناك توازن في الدورات الغذائية الأساسية والمسالك المتداخلة للطاقة داخل هذه الأنظمة البيئية أو داخل أي نظام بيئي محدود بحيث يكون هناك اتزان بين الإنتاج والاستهلاك والتحلل. وتوجد الأنظمة المتوازنة حولنا في كل مكان كالبحيرات والغابات والصحاري والبحار والمحيطات، فكل منها يمثل بيئة منفصلة قائمة بذاتها تعيش مكوناتها معا في توازن تام.

1- تعريف التوازن البيئي:

يقصد بالتوازن البيئي التفاعل أو الترابط بين عناصر البيئة في تناسق دقيق يتيح لها أداء دورها بشكل عادي في إعالة الحياة على سطح الأرض، وهذا يعني أن عناصر البيئة تحافظ على وجودها ونسبها المحددة كما أوجدها المولى عز وجل، فلا يطغى عنصر على آخر ويتوجب المحافظة على التوازن بين عناصر الإنتاج والاستهلاك والتحلل. أي يجب أن يكون هناك حالة التعادل الطبيعي بين مكونات البيئة عناصرها. ويتجلى هذا التوازن في أحسن صوره في دورة الماء.

2- اختلال التوازن البيئي:

تطرقنا لتعريف التوازن البيئي لمعرفة النظام البيئي كما خلقه المولى عز وجل توازن دقيق، قال تعالى: "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون"، وكرم المولى عز وجل الإنسان باستخلافه في الأرض، ومنذ ذلك الحين بدأ في استغلال مواردها الطبيعية وثرواتها لتلبية رغباته واحتياجاته وظلت علاقته ببيته متوازنة لفترة طويلة من الزمن، بسبب قلة عدد السكان وكذلك استغلال الإنسان لموارد البيئة محدود جدا.

وبازدياد الحجم السكاني تغيرت وتيرة استغلال الإنسان لهذه الثروات وازدادت في القرون الأخيرة بشكل رهيب وخصوصا مع بداية الثورة الصناعية، وتعدت علاقة الإنسان بالبيئة الحد

الحرج (Critical line) وهو الحد الفاصل بين الاستخدام السليم المعتدل والاستخدام المفرط، فأدى ذلك إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي للنظام البيئي.

اشتدت حدة الصراع بين الإنسان وبيئته، حتى أصبحت البيئة عاجزة عن العطاء في كثير من الأحيان تحت وطأة الضغط السكاني، أدى ذلك إلى ظهور العديد من المشكلات البيئية الخطيرة، التي أصبحت تهدد الإنسان والحيوان والنبات كالتلوث البيئي والتغيرات المناخية والتصحر والجوع.

ويمكن حصر أسباب اختلال التوازن البيئي كما يلي: تغير الظروف الطبيعية وإدخال كائن حي في بيئة جديدة والقضاء على بعض أحياء البيئة وإدخال عناصر غريبة على النظام البيئي وكذلك التدخل المباشر للإنسان.

وبشكل عام، يعتبر التلوث هو السبب الرئيسي لاختلال التوازن البيئي.